

الأدب في سيرة أعلامه :

## ٦ - تولستوى

[ فة من القسم التوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه ]

للأستاذ محمود الخفيف

## طالب فاشل



لما بلغ ليو  
السادسة عشرة من  
عمره أراد أن يلتحق  
بجامعة قازان ،  
وأختار قسم اللغات  
الشرقية إذ كانت  
بنيته أن يكون في  
غده من رجال  
السياسة ؛ وكان لا بد

لمن يلتحق بهذا القسم أن يجتاز امتحاناً في اللغات العربية  
والتتارية والتركية ، مضافاً إليها بعض اللغات الغربية وبعض  
فروع المعرفة العامة ، ونجح الفتى في بعض مواد هذا الامتحان  
وأخفق في بعض ؛ وقد حصل في اللغة الفرنسية على أعلى درجة ،  
وتفوق في الألمانية والمربية والتركية ، وكان أقل من ذلك جودة  
في المنطق والرياضة واللغة الإنجليزية والأدب الروسي ؛ أما التاريخ  
والجغرافيا فقد كان نصيبه فيهما الرسوب إلى حد بعيد ، وقد ذكر  
من نفسه أنه سئل أن يمدد الموائى الفرنسية فأستطاع أن يذكر  
منها واحدة ؛ ثم أعيد امتحانه بعد أشهر فيما رسب فيه فنجح  
وقبلته الجامعة منتسباً ...

وجلس بين صفوف الطلاب ، منصرفاً أكثر وقتة عما  
يقول الاساتذة ، يقلب عينيه في أقرانه حيناً فيعجبه منظر هذا  
وتضحك هيئة ذلك ؛ وينظر إلى الأستاذ حيناً فيسخر مما يقول  
أو يرسم له مسودة هزلية ؛ ثم ينشغل عما حوله حيناً كأنما أخذته

عن نفسه حال فما يفتيق إلا على نهوض الطلاب ينطلقون من  
دورهم ، فيسرع في انطلاقة منه لأنه ضائق به صدره ...  
وكيف يجعل الفتى للدرس باله وإنه لنى شغل نارة بما يطوف  
برأسه من أحلام الشباب وأوهامه ، وآونة بما يهبط على خاطره  
من أفكار منها ما يتصل بالدين ومنها ما يتصل بالحياة ...  
أما عن الشباب وأحلامه فقد كان له في قازان مجال أى مجال  
للهو واللعب ، وأنى الفتى نفسه وقد أخذ حب اللهو عليه كل  
مذاهبه وطالعه مغان الحياة ومسراتها من جميع أقطاره ، وهو فتى  
متوثب الشباب تمتلج في نفسه عواطف شتى من الحب والعلوم  
والشهوة وكل ما هو بسبيل من هذا ؛ ولذلك ألقى بنفسه في متع  
الحياة صالحها وفاسدها وأرغى الننان لشهواته ونزواته ، حتى  
لينسى في تلك المسرات كل ما عنى به نفسه من قبل من رغبة  
في الكمال ...

والكمال عنده يومذاك أن يلبس أحسن الثياب وأجملها وأن  
يقفن في اختيار الألوان حتى يحمل الناس على الإعجاب بذوقه ،  
ولعل عدم رضائه عن خلقته قد أدى به إلى كثير من الإسراف  
في هذا السبيل ؛ ثم إنه يلعب الورق ويشرب الخمر في جماعات من  
لدائه ؛ ويدخن الطباق في غليون جميل يحرص أن يكون ثمنه أعلى  
ثمن ، ويتطيب ويمشط شعره ويدهنه بما يكسبه اللمان ، ويتكلم  
الفرنسية في أناقة متكلفة ؛ وإنه ليشهد كل حفلة يقيمها أرسطوقراط  
المدينة وذلك بدعوة من أصحابها فإ يفوت أحداً أن يدعوهم وقد  
أسمى شخصية من شخصيات المجتمع ، وإنه ليبدل قصارى جهده  
أن يلفت الأنظار إليه ، ولكم يهجه أن يتحقق له ما يريد وبخاصة  
إذا ظفر بنظرات الأوانس ، ولكم يؤلمه ويكدر عليه عيشه أن  
يصادف من أحد عدم الاكتراث له أو الفتور في تميته ؛ وإنه  
ليندس بين كل جماعة فيتحدث ويعرض آراءه ويخالف ويمارض  
ليبرهن على أصالته وقوة شخصيته .

وإنه اينشى دور اللهو جميعاً ، فيتكلف أكثر ما يستطيع  
من مظهر أرسطوقراطي في حديثه وتحياته ومشيته وجلسته ؛ وبدل  
بآرائه فيما يشهد من تمثيل أو يسمع من موسيقى ، وبأخذ بقسط  
من الرقص ، وإن كان لا يحسنه كما يجب أن يحسنه .  
وإنه ليحسب أكثر من مرة أنه نضو حب ، فيخيل إليه

أكثر لياليه حتى يسفر الصبح في مجونه وقتونه ، وليث على هذه الحال حتى انتصف العام الدراسي أو جاوز المنتصف .

وكان في الجامعة يتنبل بماله وتيا به ، يصل إليها على جواد جميل وحوله بمض الخدم ، ولا يجالس أو يصاحب إلا من يراه في مثل طبقتة ، ويترفع على من يرام دونه ، ولذلك كان بغيضاً إلى هؤلاء تقيلاً عندهم ، قال أحدهم يصف شموه نحوه « لقد كنت أبتعد عن الكونت ، ذلك الذي تفرنى من أول الأمر نظاهره بالجفاء كما تفرنى شمره القصير الحشن وما يبهت من عينيه نصف القفولتين من معنى يخز النفس ، وإنى لم ألق قط شاباً مثل ما لهذا الشاب من ذهاب بالنفس ورضاء عنها ، الأمر الذي يمدغريباً كما أنه لا يفهم ؛ وقلما كنت أقابل الكونت أول الأمر ، ذلك الذي على الرغم من قبيء منظره وخجله قد أخذ له رفقة ممن يدعون الأرستقراط ؛ وقلما عني بأن يرد تحيى كأنما يريد أن يشير بذلك إلى أننا أبعد من أن تتساوى حتى في هذا المكان حيث أنه يأتي إليه في عربة أو على ظهر جواد وآتى أنا راجلاً » وذكر هذا الزميل مرة أخرى أنه تصادف أن حبس في حجرة بالكلية هو وتولستوى بمض الوقت عقابا لها على تقصير ، فرأى تولستوى في يده كتاب تاريخ ، فقال إن التاريخ في رأيه أنفه موضوع ، فاهو إلا مجموعة من الخرافات والتفاصيل المديعة الجدوى تتخللها طائفة من الأرقام وأسماء الأعلام ؛ وتطرق الحديث إلى الشمر فهكم تولستوى وسخر من الشمر ؛ ثم تحدث عن التعليم الجامعي بوجه عام فسخر منه ما وسعته السخرية وسخر من تسمية الجامعة دير العلم إلى أن قال « ويحق لنا أن نتوقع أننا نترك هذا الدير رجلين ناقمين ضرودين بالمعرفة ، ولكن ما ذا عسى أن نحمله منا من الجامعة حقاً ، وأي شيء نصلح له ولن من الناس نكون ضروريين ؟

هذا هو رأى زميله عنه ، ولكن الذين عرفوا تولستوى وقد نسي تكلفه يجذونه شخصاً غير هذا ، فهو ذكى الفؤاد محب العشرة إلى رفقائه ، طيب القلب ، واسع الآفاق متوثب الروح ، صادق الحماسة لما يعتقد أنه حق أو صواب .

وهو في أثناء أجازته الصيفية في باسنايا ، ينسى ما كان منه في المدينة من تكلف يبد به عن طبيعته ، ولو أن أحداً من خلانه رآه هناك لأخذه المعجب من أن يكون هذا هو الطالب الأرستقراطي

نارة أنه أسير هوى لشقيقة صاحبه دياكوف ، وتعدنه نفسه أنها خير ما يختار من زوجة ؛ ثم إذا به يتجه بخياله وقلبه إلى صديقة لأخته ماري إذ يراها وهي طالبة في معهد مال تجمع إلى جمال الخلفة حسن الخلق وسمة الثقافة ؛ ولكنه لا يلبث أن يرى نفسه وقد علق قلبه بفتاة تزوجت حديثاً ، ولكنه يؤثر أن يموت بين يديها على أن يكشفها بما يحس نحوها من حب ... ولن تزال أحلام الحب تطوف بقلبه شأنه في ذلك شأن غيره من الشباب ، ولا تزال الرغبة في الزواج تلح على نفسه وتوحى إليه كثيراً من الأمانى العذاب ، ولكنه لا يستقر على رأى ، وقصاره أن يحلم بمن يتوق إلى أن يجها لتكون له زوجاً تجمع بين صدق الماطفة ورجاحة العقل وتحس نحوه مثلاً يحسه نحوها وتفهمه كما يفهمها ، وإنى له أن يظفر بهذه الزوجة التي لا يجدها إلا فيما يحلم من حلم ؟ ولم يقتصر الفتى على الأحلام ، فقد كان طيب نساء يسمى إليهن ويسمين إليه ولا يتورع أن يتسلل إلى بيوت يتهامس الناس بأسمائها ويتناشرون بها ؛ ولن تخرج المرأة في رأيه عن إحدى اثنتين ، فأما واحدة يلهو بها ويطلق بها لهيب جسده ، وإما ثانية يحلم بين يديها أحلام الزواج واللفة ولا يستطيع خياله أن يتجه لحظة أمامها إلى معنى من معاني السوء ، ومن عجيب أمره أنه على تنبئه بالشباب والسال وعلى حيويته وقوة بدنه كان خجولاً شديد الاضطراب إذا وجد نفسه في مجلس أوانس أو سيدات مهمما بلقت أفنته لمن ، أو إذا تحدث إلى فتاة أو سيدة فسا يزول عنه خجله أو يبارحه اضطرابه إلا بعد حين .

ومن كان يمحا حياة كهذه مطلق المنان مسرفاً في اللهو كان حقيقة أن يفشل في طلب العلم ؛ ولذلك فشل تولستوى فشلاً كبيراً ، على أنه يحاول أن يبرىء نفسه فبرد سبب إخفاقه إلى اضطنان أستاذ التاريخ الروسي عليه ، ويزعم أنه كان حسن الإلمام بهذه المادة ؛ كما يعلم أن هذا الأستاذ أسقطه كذلك في اللغة الألمانية على الرغم من أنه يجيدها أكثر من أى طالب آخر في قسمه بما لا تجوز معه المقارنة .

وترك تولستوى كلية اللغات الشرقية إلى كلية القانون ، ولكنه في عامه الثاني بالجامعة لم يك أحسن حالا منه في عامه الأول ، فقد ظل مسرفاً في لهوه لا يقف فيه عند حد ، يسهر

وما على المرء إلا أن ينسحب من الجامعة وينطوى على نفسه ليرى كيف بطرح عقله ذلك المنظار الذي كان يرى خلاله كل شيء حتى ذلك الوقت في ضوء مهوش ... ولأن يكتب المرء عشرة مجلدات في الفلسفة أهون عليه من أن يحقق فكرة واحدة تحقيقاً عملياً .

وفي منتصف أبريل من تلك السنة كتب في يومياته بقول :

« لقد فشلت منذ قريب في أن أجمل سلوكي كما أريد ، وكان مراد ذلك بادي الرأي إلى أنني تركت المشتق ، ثم بعد ذلك إلى من أجدني أعود إلى مخالطهم من رقة يوماً بعد يوم ؛ وأختم ذلك بأنه ينبغي أن يقدوني تغيير المكان إلى أن أفكر في جد كيف تؤثر في الظروف الخارجية كلما تجددت الشروط والأوضاع .

وينفكر في مستقبله فيماوده ما كان يطمح إليه من كمال على الرغم مما أسرف فيه من عبث وهو فيقول : « إنني أجدني دائماً بحيث يطالعني هذا السؤال : ما الفرض من حياة الإنسان ؟ وبنض النظر عما بلغت بطول تفكيري من نتائج وعما أعده في رأي منبع الحياة ؛ فإني ما أزال أصل إلى خاتمة لا تتغير ومؤداها أن الفرض من الوجود الإنساني إنما هو أن نبذل أكبر عون نستطيعه في سبيل أن يرق كل شيء حتى رقيقاً عالمياً عاماً ؛ وإنني لو لم أجد غرضاً لحياتي لكنت أشق بنى الفناء على أن يكون غرضاً نافعاً عاماً ... وعلى ذلك فيجب أن تكون حياتي منذ اليوم كفاحاً دائماً نشطاً في سبيل تحقيق هذا الفرض الذي ليس لي غرض سواه .

ويعود الفتى إلى اعتزاه وما يقطعه على نفسه من موثيق فيذكر ما سوف يأخذ به نفسه من ألوان الجد في عاميه القاديين بالقرية ، فيدرس القانون كله لتهيأ للامتحان النهائي للجامعة وسيدرس الطب العملي وقسطاً من ناحيته النظرية واللغات الفرنسية والروسية والألمانية والانجليزية والاطليانية واللاتينية ، والزراعة النظرية والعملية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والعلوم الطبيعية ، وسيدون ما يمن له من ملاحظات وسيبلغ درجة الكمال في الفن والموسيقى ، وسيكتب المقالات في شتى المواضيع التي يدرسها إلى غير ذلك من ألوان الجد والناب ... ثم إنه يقطع على نفسه عهداً أن ينتجز ما جمع عزمه عليه مهما

الذي عرفه في الجامعة ؛ فهو هنا في القرية يستحم في النهر ويجلس تحت شجرة يطالع قصة فرنسية ، ويصيد السمك أو الطير ويعشى في الغابة ما وسعه الشئ وقد أطلق نفسه على سجيها ، فلا أناقة في ملبس ولا تكلف في مشية أو جلسة أو حديث ؛ وإنه لينام في شرفة وياً كل حيث يحب ويلبس ما يلائم لبعه الحر لحسب ؛ حتى إذا عاد إلى المدينة رجع إلى تكلفه وأرستقراطيته .

ونجده بعد إمرافه في لهوه يثوب بعد منتصف العام الدراسي الثاني إلى شيء من الجد ؛ ويجد لذة في دراسة القانون المقارن والقانون الجنائي وعبثية الإعدام ، ويقبل على القراءة إقبالاً شديداً حتى ليتجاوز المقرر كثيراً في هذه الموضوعات ، ويأنس منه أستاذه هذا الإقبال فيكلفه أن يقارن بين كتاب منتسكيو «روح القوانين» وبين قانون كاترين الثانية ، فيجد الفتى في هذه القارئة متعة عظيمة حتى ليميل إلى ترك الجامعة كي يستطيع أن يقرأ ما يحب أن يقرأ في غير قيد بما يتطلب المهاج ، فإنه إذا أقبل على قراءة شيء أحبه لا يحب أن ينصرف عنه إلى غيره حتى يستوعبه ويستوفي منه ما يريد . ويخرج الفتى من مقارنته بين الكتائين بأن كاترين في كتابها قد خلطت آراء منتسكيو الحرة باستبدادها وغرورها ؛ وأن هذا الكتاب قد أجدى على كاترين من الصيت أكثر مما أجدى على روسيا من الخير ...

وفي شهر مارس من سنة ١٨٤٧ يصابه المرض ويلج على بدنه القوى فيحمل إلى مستشفى يقضى به أياماً ؛ وهناك يبدأ الفتى كتابة يومياته فتكون هذه اليوميات من أهم مصادر تاريخ حياته ، فلقد دأب على كتابتها أكثر أيام عمره ؛ ولم يقطع عنها إلا بضع سنين ثم عاد إليها .

وكانت أول صفحة منها بتاريخ اليوم السابع عشر من ذلك الشهر ومما جاء فيها قوله : « ليس بصحبي خادم هنا ولا يساعدي أحد ، وعلى ذلك فلن يؤثر مؤثر خارجي في ذاكرتي أو حكمي على الأشياء ، ويجب نبهاً لذلك أن يزداد نشاطي العقلي ... وإن أهم ما كتبته من ذلك هو أن أرى في وضوح أن تلك الحياة المضطربة التي يمزوها الناس عرظاً إلى الشباب إنما مردها في الحق إلى فساد روي مبكر ؛ إن من يعيش في جماعة يمجذ في العزلة من القائدة له مثلما يمجذ منها في الجماعة من كان يعيش في عزلة ؛

ففي سنة ١٨٤٦ خرج أخوه نيقولا من الجامعة والتحق بالجيش ، وعاش ايو مع أخويه الباقين في بيت استأجروه وقد تركوا بيت عمهم فلارقيب عليهم ؛ وبعد أشهر قليلة قسمت ثروة أبيهم بينهم فكانت باسنايا بوليانا من نصيب ليو ، مضافاً إليها أربع ضياع أخرى تبلغ اربعمائة وخمسة آلاف من الأقدنة ، كما كان من نصيبه نحو خمسين وثلاثمائة من الفلاحين الذكور ومن وراثتهم أسرم ؛ وفي يناير سنة ١٨٤٦ يحس ليو بكثير من الضيق بعد أن بارح أخوه الجامعة كما يسأم حياة المدينة وملاهيها وغرورها ، وحياة الجامعة وقيودها والامتحانات وسخفها ، فيكتب إلى إدارة الجامعة لتستبد اسم من سجلاتها معتدراً بسوء صحته وبأمور تتصل بمطالب أسرته ؛ وينطلق من الجامعة إلى غير عودة ، فهل هو فاعل في غده ما تخيله في قازان من ضروب الجد ؟

التحيف

( يتبع )

تسكن العقبات وأن ينجزه على خير وجه والأرجح إلى الكتب فيما نسي من أمر بل يعمل على أن يسترده من ذاكرته ؛ وأن يحرص على أن يبذل عقله أقصى ما في وسعه من طاقة وأن يجهر بقراءته وتفكيره ، والألا ينجعل من أن بصارح من يقطعون عليه عمله بأنهم يوقونه عنه ؛ وليدعهم أول الأمر يشمرون بذلك فإن لم يفهموا فليصارحهم به في شيء من الاعتذار .

وحق للمرء أن يعجب من هذا الذي يمتزمه الفتى بعد ما كان من لعبه وبطالته ، ولعل إسراره على نفسه هو الذي يوحى إليه بما عسى أن يفنيه ذلك الميث ويوضه عما فاته من جد ؛ وفيه العجب وتلك حال من حالات الشباب ، والشباب يتخيل أنه قادر على كل شيء فلننظر ماذا أنجز الفتى من هذا الذي جمع العزم عليه .

لم يلبث الفتى أن ترك الجامعة دون أن يحصل على شهادة ما ؛

<p>في تأليفه أكثر من مؤلفه ١٠ - الجائزتان كل منهما (٥٠٠) جنيه ١١ - يحق لكل عربي أن يشترك في السابقة أيا كان قطره ١٢ - إذا قبلت لجنة التحكيم كتابين متقارنين في الجودة في أحد الموضوعين وزعت الجائزة بينهما ولا يجوز أن تقبل أكثر من كتابين ١٣ - يكون الكتاب ملكاً للمؤلف بشرط أن يطبعه وينشره في ظرف سنة من قبول لجنة التحكيم فإذا لم يطبعه في هذه المدة كان للجامعة أن تطبعه ١٤ - آخر موعد لتقديم الكتاب أول مايو سنة ١٩٤٨ .</p> <p>٦٨٥٨</p>	<p>٣ - في عرض الموضوع تذكر مصادر البحث في حواشي الصفحات مع ذكر أرقامها وتذكر النصوص إذا دعت الحاجة ٤ - يعنى في الكتاب بتاريخ الأمة والشعب والحضارة ولا يقتصر على تاريخ الأشخاص والحروب ٥ - على المؤلف أن يطلع على المصادر الهامة المكتوبة في الموضوع بلغة أجنبية ويشير إليها ٦ - لا يجوز تقديم كتاب في أحد الموضوعين سبق نشره ٧ - لا تقل صفحات الكتاب عن (٥٠٠) صفحة من القطع المتوسط ٨ - يزود الكتاب بالخرط التي يحتاج إليها ٩ - يقبل الكتاب الذي اشترك</p>	<p>جامعة الدول العربية الأمانة العامة جائزنا جامعة الدول العربية للمؤلفين ١ - الموضوعان المقترخان لنيل جائزة الجامعة العربية هما : ١ - تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى خروج العرب منها وما يتصل بذلك من الحوادث في بلاد المغرب ب - تاريخ الأمة العربية ( العراق - الشام - مصر والسودان - بلاد المغرب - جزيرة العرب ) من سقوط بغداد إلى أول القرن الثالث عشر الهجري ( التاسع عشر الميلادي ) ٢ - يكتب الكتاب بلغة عربية صحيحة كتابة علمية لاداعافية إنشائية في مستوى الجمهور المثقف</p>
---	---	---